# السلطان الغورى

مكانته فى الأدب والعلم وأثره فيهما

للدكتور عبد الوهاب عزام

صفرنا بهذه الخلاصة الوافية للخطاب القيم الذى ألقاه صديقنا الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام في مؤتمر المستشرقين ببركسل ؛ فنال إعجاب العلماء المجتمعين بطرافة موضوعه ، ودقة بحثه ، وسداد طريقته (المحرر)

— ١ —

السلطان قانصوه الغورى أحد سلاطين المماليك بمصر . حكم من سنة ٩٠٦ إلى سنة ٩٢٢ هـ

ولست أريد أن أعرض للأحوال السياسية التى تولى فيها، والأحوال التى أزالت ملكه وقضت على دولة المماليك ؛ ولكنى أريد أن أذكر طرفاً مما عرف من صلته بالأدب والعلم

كان ذا حظ وافر من العلوم الدينية : التوحيد والتفسير ، والفقه ؛ وكان ذا نصيب من التاريخ معنياً بقراءة التواريخ والقصص وسماعها ، كما كان ذا بصر بالأدب ، وله نظم بالعربية والتركية ؛ وكانت له مشاركة فى الموسيقى والغناء ، وله موشحات كان يُتغنى بها

— ٢ —

وتاريخ الغورى مفصل فى كتب التاريخ ولا سيما كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» لمحمد بن إياس ؛ ولكن سيرته فى الأدب والعلم تنجلى فى ثلاثة كتب لم تنل نصيبها من العناية وفيهما للمؤرخ مجال واسع

١ — كتاب نفايس المجالس السلطانية، فى حقائق الأسرار القرآنية : ألفه حسين بن محمد الحسينى ، وهو شريف كما يؤخذ من اسمه ومن عبارات فى ثنايا الكتاب ، ويظهر أنه تركي ساح فى إيران والبلاد الشرقية ، وقد نظم بيتين بالتركية فى رثاء ابن السلطان الغورى ، وروى من شعر حسين بيقرا . وفد على مصر فأقام عشرة أشهر شهد فيها مجالس السلطان الغورى ، وجمع فى كتابه هذا بعض المباحث التى كان السلطان والعلماء يتكلمون فيها والعجمة ظاهرة فى كتابته حتى اسم الكتاب فقد سماه « نفايس مجالس السلطانية فى أسرار مجالس القرآنية » فحذف اللام من المجالس والأسرار

والنسخة التى بأيدينا هى النسخة التى كتبت للسلطان وأهديت إليه . وقد كتب عليها الصيغة المعتادة :

( برسم خزانة المقام الشريف ملك البرين والبحرين مولانا السلطان المالك الملك الأشرف قانصوه الغورى خلد الله ملكه )

ويقول المؤلف فى مقدمة الكتاب : أما بعد فإنى لما تشرفت فى خدمة أشرف الملوك وأعظم السلاطين ظل الله فى الأرضين ، ناظر أربع حُرُم رب العالمين ، سلطان العرب والعجم ، صاحب البند والعلم ، حافظ بلاد الله ، ناصر عباد الله ، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، ملك الأشرف عزيز مصر أبو النصر قانصوه الغورى ، أعز الله أنصاره ، وضاعف أقداره — ولازمتُ بابه الشريف عشرة أشهر ، وجمعت درر فوائده فى سمط العبارة ، ونظمت جواهر زواهره فى خيط الكتابة . فان بابه الكريم مجمع الأفاضل ، وجنابه العظيم بحر الفضائل والفواضل . هذا مع ماخصه الله تعالى من الفضائل النفيسة ، والمناقب الشريفة اللطيفة ، أعطاه من الفهم أوفره ، ومن الذهن أغزره ، ومن الحلم أشرفه ، ومن العلم ألطفه ، ومن الرتب أقواه ، ومن الملك أعلاه ، ومن الشجاعة أبلغها ، ومن السخاوة أعظمها ، كل هذه الصفات خصه الله تعالى بمجموعها . ولهذا ارتقى إلى الذروة العالى ، التى كانت نهاية درجات الأفاضل الأهالى . وفضل هذا السلطان على سلاطين الدنيا كفضل سلاطين الدنيا على الرعايا .

وكل هذه الأوصاف والمناقب بما قرن به من محبة العلم والعلماء والتفتيش عما وضعته الحكماء فى كل نوع من العلوم ، لو يقول البشر فى وصف هذا المظهر إنه هو سلطان العلماء المحققين ماهو كذب فى حقه ، أو يقول فى مدحه : انه هو سلطان العارفين ماهو عيب فى وصفه »

وجعل كتابه فى مقدمة وعشر روضات . والمقدمة قصيرة تتضمن كلام بعض السلاطين ومنهم الغورى . والروضات العشر يذكر فى كل واحدة منها مجالس السلطان فى شهر . وكانت المجالس تجتمع فى كل أسبوع مرة أو اثنتين أو ثلاثاً .

وأولها مجالس رمضان سنة عشر وتسعمائة . وأول مجلس منها يوم الخميس الثالث والعشرين من الشهر ، وآخرها مجالس رجب

فهي عشر روضات فى أحد عشر شهراً لأن السلطان لم يجلس فى شهر ذى القعدة ، لوفاة ولده محمد .

والمؤلف يصف كل مجلس وتاريخه ومدته ، ويذكر الإمام الذى يحضر المجلس وكبار الحاضرين، ثم يذكر المسائل التى طرحت للبحث فى المجلس . يقول فى المجلس الأول :

« طلعت يوم الخميس ثالث وعشرين رمضان المبارك فى تاريخ سنة عشر وتسعمائة، وكان فى خدمته ناصح الملوك والسلاطين شيخ حسن چلبى؛ وكان الامام فى تلك الليلة شيخ شمس الدين السمديسى. وقعدوا فى الأشرفية ستين درجة . ووقع فى تلك الليلة أسولة . السؤال الأول الخ » . .

ويقول فى المجلس الثانى من شوال :

« طلعت يوم الأحد تاسع شهر شوال ، وقعدوا خمسين دقيقة فى البيسيرية الأشرفية . والامام كان شيخ محب الدين المكى ، وشيخ الاسلام كان حاضراً. وخواجه غياث الدين ده دار ، وقاضى جمال الدين الخشاب ، وكثير من الناس كانوا فى الخدمة الشريفية والعتبة العلية »

يبدأ السلطان أكثر الأحيان بسؤال يجيب عنه أحد الحاضرين فيرتضى السلطان جوابه أو يناقشه ، وأحياناً يبدأ أحد الحاضرين الكلام . وأكثر المسائل دينية وبعضها تاريخية ، ومنها ألغاز فى موضوعات شتى ، وقصص عن الملوك وغيرهم

وأحياناً يصف المؤلف مشاهد ويروى أحاديث لها فى التاريخ خطر كبير

مثلاً يصف إحياء السلطان المولد النبوى ، ويذكر طوائف الناس الذين اجتمعوا ، وما فعلوا فى هذا المحفل، ويبين كيف جلس السلطان ليلا وكيف يتقدم إليه كبار الدولة وينشد كل منهم شعراً فى مدحه وكيف يقابلهم السلطان . وقد ذكر أن الخليفة يعقوب المستمسك بالله خليفة مصر تقدم « وباس الأرض، كفرض العين وعين الفرض » وأنشد :

إن الخلافة ثوب قد خصصت به ... إذا لبست فلم يفضل ولم يعز
ما أودع الله فى أحداقنا بصراً ... إلا لنفرق بين الدر والخرز

وكذلك يمر القارئ بمسائل ذات خطر فى التاريخ والسياسة إذ ذاك كقول السلطان : « الجركس من الغساسنة فهم عرب » وكالبحث فى شروط الامامة فى مجلس السلطان وقول مؤلف الكتاب : فان لم يوجد من يستوفى الشروط من ولد اسماعيل جاز أن يُولّى واحد من العجم أو من ولد إسحاق . وقوله بعد هذا :

الحمد لله والمنة ، الجركس من ولد إسحاق وجميع هذه الشرائط موجودة فى السلطان الأعظم

بل نجد فى الكتاب بحثاً صريحاً فى نيابة الغورى عن الخليفة العباسى وهل هذه النيابة لازمة لصحة أحكامه فى الأمور الشرعية. ويشتد الخلاف بين المؤلف وأحد العلماء فى هذه المسألة فيحقر المؤلف الخليفة ويعظم السلطان ، ثم يذهب يستفتى العلماء ويأخذ خطوطهم بأن نيابة السلطان عن الخليفة غير لازمة

ويرى القارئ أحياناً اهتمام السلطان بتعليم المماليك وإحضارهم معه من حين إلى آخر إلى مجلسه ليقرءوا أمامه ويمتحنهم

وهكذا يجد القارئ فى الكتاب مسائل مهمة لا يظفر بها فى كتب التاريخ ، ويرى صوراً من آراء السلطان وعلماء عصره ، ويتبين مقدار اطلاعهم ودرجة تفكيرهم

٢ — الكتاب الثانى : اسمه الكوكب الدرى فى مسائل الغورى ، وهو يحتوى على ألفى مسألة وأجوبتها من المسائل التى وقع البحث فيها فى مجالس السلطان الغورى أيضاً . ولدينا الجزء الأول من الكتاب وفيه ألف مسألة فى ٣٣٨ صفحة . والنسخة مكتوبة فى عهد الغورى .. ويظهر أنها نسخة المؤلف . وعليها خطوط ثلاثة من علماء وقته المعروفين يشهدون بأنهم اطلعوا على الكتاب . وبعض هذه الخطوط مؤرخ بالسنة التى تم فيها كتابة هذا الجزء

ويقول المؤلف فى آخر الكتاب : « وكان الفراغ منه فى مستهل شهر ربيع الآخر سنة تسع عشر وتسعمائة »

ويقول فى المقدمة : وبعد فانى لما رزقنى الله سعادة الدارين وتشرفت مدة عشر سنين بخدمة سلطان الحرمين الشريفين خان الأعظم وخاقان المعظم ، مولى ملوك الترك والعرب والعجم حافظ بلاد، الله ناصر عباد الله، وارث ملك يوسف الصديق، إمام الأعظم بالحق والتحقيق، مظهر الآيات الربانية، مظهر الأسرار الروحانية ، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، الملك الأشرف ذو الفيض النوري، أبو النصر قانصوه الغورى الخ ... قصدت أن أجمع در فوايد

مجلسه فى سمط العبارة والكتابة ، وأنظم جواهر زواهره فى سلك الاستعارة والكناية ، لأنه ورد فى كلام بعض الأنام : كلام الملوك ملوك الكلام، سيما إذا كان المبحوث عنه تفسير كلام رب العالمين، ونكات أحاديث سيد الأنام عليه الصلاة والسلام ، ومباحث سلطان الاسلام الخ ...

إلى أن يقول : وجمت شيئاً يسيراً وفاتنى منه شىء كثير ؛ فجمعت من بحار فوايده قطرة، ومن شموس محاسنه ذرة ، لم أقدر أن أجمع إلا واحداً من ألف يل من مائة ألف ... فجمعت من المسائل المشكلة ألفى مسألة ، وسميته بالكوكب الدرى فى مسائل الغورى ...

وفى هذه المقدمة شبه بمقدمة الكتاب الأول ، وبعض عبارات بها واحدة ، وبين تاريخهما زهاء عشر سنين

وهذا الكتاب ليس مقسما على المجالس كالكتاب السابق ، بل المسائل فيه متتابعة بغير فصل . والمطلع على الكتاب يرى صوراً من أفكار علماء مصر وأمرائها فى ذلك العصر . يرى إلى المسائل الدينية وهى معظم الكتاب ، مسائل تاريخية ، وجغرافية، ويرى انتقال الحديث من تفسير آية أو حديث إلى السؤال عمن بنى الأهرام أو عن سبب زرقة السماء أو السؤال عن كيورث أول ملوك الشاهنامة أكان قبل نوح أو بعده ، أو عن شهر المحرم لماذا جعل أول التاريخ الهجرى ، أو هل الأرض أفضل أم السماء . ويجد القارئ فى الحين بعد الحين فكاهة من السلطان أو نادرة ، ويمرض فى المجالس ذكر الملوك المناصرين والأمراء الذين وفدوا على السلطان كابن السلطان سليم. ويرى بعض الأسئلة الدينية التى سألها هؤلاء الأمراء وجواب السلطان أو بعض علمائه

لا ريب أن هذا الكتاب على تفاهة معظم المسائل التى يدور عليها البحث ، يصور بعض النواحى الفكرية والاجتماعية فى مصر والعالم الاسلامى ، فى ذلك العصر

٣ — الغورى والشاهنامة :

— ١ —

كان حسين بن حسن بن محمد الحسينى الآمدى أحد شعراء التركية فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجرى وشهد عهد السلطان الغورى فى مصر ، ولعله فرّ إليها إذ كان من المقربين إلى الأمير جم بن محمد الفاتح . وتوفى بمصر سنة ٩٢٠ وقد أمره السلطان الغورى أن يترجم شاهنامة الفردوسى إلى اللغة التركية فترجمها فى عشر سنين آخرها سنة ست عشرة وتسعمائة

وقد نظم الشاعر فى مقدمة الكتاب فصلاً يبين فيه سبب نظمه . وخلاصته أن السلطان كان ولعاً بقراءة التاريخ والقصص، وكان فى خزانته كتاب الشاهنامة، فدعا الشريفى وقال: إنى أحب هذا الكتاب وأعرف ما تضمنه من المواعظ والأخبار وأريد أن يترجم إلى اللغة التركية ليسهل علينا إدراك معانيه . وأعرف أن لك مقدرة على نظمه، فترجمه إلى التركية . فقال الشاعر : أيها السلطان المعظم ! كيف تريد أن تسهل عليك معانيه بالترجمة وأنت تعرف لسان العجم أحسن من العجم ؟ بل هو أسهل عليك من اللغة التركية ، وليس بك حاجة إلى ترجمته

قال السلطان : أريد أن يبقى ذكراً بعدى ، فإنما يخلد الانسان بالذكر الحسن

قال الشاعر: ولكن نظمى ليس من البلاغة والسلاسة بحيث يعجب السلطان ؛ وليس يسيراً أن يبلغ الكلام الدرجة التى ترضيك ، والشاهنامة كتاب غير الترجمة

قال : دع الاعتذار ولا تعتل فأنت من آل الرسول. فشمّر للأمر ، وإن لم يكن كلامك مزخرفاً مصنفاً فلست أبالى . لست أكلفك كلاماً ملوكياً ، ولكن أريد أن تقول باللسان التركى قولا درويشياً

يقول الشاعر : فلم أجد بداً من امتثال الأمر على ثقل العبء وعلى بعد ما بينى وبين الفردوسى ، وشرعت فى نظم الكتاب فى وزن آخر غير وزنه الفارسى الخ ...

— ٢ —

فى مقدمة الكتاب وخاتمته نحو ألف بيت ؛ يبدأ الكتاب بالتحميد ، ومدح الرسول والخلفاء على سنّة شعراء الفرس والترك ، ثم يذكر سيرة ممالك مصر منذ سنة ٩٧٠ هـ ، يذكر قايتباى والملوك الذين خلفوه فى فترة الاضطراب التى بينه وبين الغورى ، ثم يفيض فى مدح السلطان ، ثم يبين سبب نظم الكتاب ويشرع فى ترجمة الشاهنامة . وفى الخاتمة يمدح السلطان ويبين أنه نظم الكتاب باسمه وأتمه فى دولته ، ويتكلم عن أخلاق

السلطان وسياسته وشغفه بالعلم والأدب، ومعرفته لغات كثيرة، ومشاركته فى الانشاء والشعر ونظمه فى توحيد الله ومدح الرسول، وإلمامه بالموسيقى، ونظمه موشحاً للغناء، وولعه بقراءة التواريخ الخ ... ثم يصف مجلس السلطان واجتماع العلماء فيه لمذاكرة العلم، ويذكر المغنين والموسيقيين الذين يطربون السلطان في مجالسه

ثم ينتقل إلى وصف عمارات السلطان وصفاً مفصلاً فيعدد قسماً منها . والخلاصة أن في مقدمة الكتاب وخاتمته ما يكشف بعض تاريخ الغورى ولا سيما الجانب الأدبى منه ، ويبيّن طرفا من تاريخ عصره — بعد حساب المبالغات الشعرية .

— ٣ —

هذا الكتاب له قيمة عظيمة فى تاريخ اللغة التركية فهو سجل جامع لألفاظ اللغة التى كانت مستعملة فى القرن العاشر الهجرى ولقواعد النحو والصرف التى كانت متبعة إذ ذاك .

وفيه كذلك صورة مفصلة للضرورات الشعرية التى كانت تعانيها اللغة من بعض الشعراء فى ذلك العصر ، والتى ذكرها ضيا باشا فى مقدمة « الخرابات »

— ٤ —

ويزيد فى قيمة الكتاب وفائدته ، أن عندنا منه نسخة الأم أعنى النسخة التى كتبها المترجم بخطه ، وقدمها إلى السلطان ؛ فعلى صفحة العنوان نجد هذه الصيغة :

« برسم خزانة مولانا المقام الشريف السلطان مالك رقاب الأمم ، السلطان المالك ، الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره وخلد ملكه .

وفى آخر الجزء الأول :

« وقع الفراغ من تحرير المجلد الأول فى أول ليلة من شعبان المبارك فى محروسة مصر صانها الله من الآفات ، فى قبة الحسينية لأمير يشبك ، تغمده الله بالرحمة والغفران » ،

كاتبه ناظمه أضعف عباد الله حسين بن حسن بن محمد الحسينى سنة ثلاث عشر وتسعمائة . والحمد لله الخ ..

وفى آخر الجزء الثانى :

تم الكتاب بعون الملك الوهاب ضحوة النهار يوم الأحد ثانى شهر ذى الحجة الحرام سنة ست عشر وتسعمائة من هجرة النبوية عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات ، كاتبه ناظمه وهو أضعف العباد حسين بن حسن بن محمد الحسينى الحنفى فى مدينة مصر حرسها الله من الآفات والبليات فى جامع المرحوم المغفور السعيد الشهيد الملك المؤيد شيخ سقى الله عهده بالرحمة والمغفرة

وبعد هذا سطران بالتركية :

« بو كتابك نظمنه مولانا السلطان عز نصره الغورى أول سلطنت يلنده ابتدا إيلدك ، أون يلده تمام أولنـدى ، أونك دولتده إتمامه أرشدى »

حسبنا الله ونعم الوكيل . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

( ومعنى العبارة التركية أنه بدأ الكتاب فى أول سنة من عهد السلطان وأتمه فى عشر سنين في دولته )

— ٥ —

والنسخة فى ١١٧٠ ورقة كبيرة أى ٢٣٤٠ صفحة، كل صفحة ٢٥ سطراً، وهى مذهبة، وبها اثنتان وستون صورة ملونة . وإزاء كل صورة فى الحاشية عنوانها بخط مذهب. ولهذه الصور قيمتها فى الدلالة على التصوير المصرى فى ذلك العصر

— ٦ —

ثم يزيد هذه النسخة نفاسة وفائدة أنها واضحة الخط تميز فيها الحروف الثلاثة پ ، چ ، ژ، من الحروف العربية ب ، ج ، ز بوضع نقطتين تحت الحرف أو ثلاث . وهذا نادر فى الكتب القديمة ، وهى بعد هذا مشكولة شكلا تاماً لا يرتاب القارئ فى ضبط كلمة منها

فبين أيدينا زهاء ستة وخمسين ألف بيت من الشعر التركى فى القرن العاشر الهجرى مضبوطة ضبطاً تاماً ، وقيمة هذا في اللغة والأدب ليست هينة

— ٧ —

عرفنا من هذه الكتب أن السلطان كان مولعاً بالأدب وأن له نظماً بالعربية والتركية . ولدينا نماذج من نظم السلطان فى موشح فى كتاب نفايس المجالس، وقصيدتين وموشحين بالعربية، وموشح بالتركية فى كتاب تاريخ حلب للطباخ ، وعند بعض أدباء حلب قطع أخرى من شعر السلطان ، وفي استانبول مجموعة من شعره

عبد الوهاب عزام